بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الانبار
كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

ملامح شخصية البطل في شعر الأيام
(بين الفن والصورة المثالية)

ا.م.د.نصرة أحميد الزبيدي

تشرين ثاني/2008

المدخـــل

لاشك في إن الشعر قد ارتبط بالأحداث الكبيرة لاسيما الحروب، وتلك حقيقة لاتقبل الشك كان القدماء قد تطرقوا إليها وانتهوا إلى تقريرها في مقدمتهم ابن سلام في حديثه عن شعر الطائف حيث يقول(وبالطائف شعر ليس بالكثير وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الاوس والخزرج أو قوم يغيرون ويغار عليهم والذي قلل شعر قريش انه لم تكن بينهم نائرة ولم يحاربوا)**(1)** ويؤكد د. نوري القيس هذا الكلام بالقول:(إن الشعر يكثر في الوقائع والحروب والبرهان على ذلك هي أيام العرب وكثرة الشعر والشعراء والرجز والرجاز فيها ...وتوشك أيام العرب أن تستأثر برواية الشعر العربي قبل الإسلام ويكاد جميع الشعراء في مختلف طوائفهم أن يدخلوا في نطاق الأيام إما فرسانا أو محمسين أو مفتخرين)**(2)**،

وقد أطلق العرب مفهوم الأيام منذ العصر الجاهلي على (الملاحم) التي وصلت إلينا وتمثل أروع تراث شعري وأطلقته الروايات العربية كما يقول د. عادل البياتي على الحروب التي قامت بين القبائل في العصر الجاهلي**(3)**وقد كفانا البياتي الجدل الواسع حول مفهوم كلمة (يوم) فما يهمنا ليس الإطار التاريخي بقدر ما نركز على التراث الشعري الضخم الذي خلفته تلك الأيام ،ومن المؤكد ان هذا الشعر على الرغم من ارتباطه الوثيق بالوقائع الحربية إلا انه زخر بمادة فكرية واجتماعية متنوعة فحمل إلى جانب تفاصيل الحرب والقتل والبطولة والثأر مفاهيم الإيثار والنخوة والنجدة وركز على السمات الأخلاقية الرفيعة التي تلونت بها أشعار الفخر والرثاء والمديح وحتى الهجاء ، إلى جانب روعة الوصف ودقته التي عكست احترافية فنية رائعة تميز بها الشاعر العربي مثلما إن شعر الأيام قد كان موسوعة ضخمة لأسماء شعراء كثيرين وشاعرات وارتبط بعضهم بصورة وثيقة مثلما إن شهرة الكثير منهم قامت على تلك الوقائع التي تحدثوا عنها مطولا فكان شعر الأيام مادة تاريخية موثوقة إلى جانب قيمته الفنية ومكانته المتميزة ، ولاشك في أن ابرز ملامحه الأخرى تمثلت بملامح (الاسطرة) التي تقود إليها الوقائع وهول المواقف التي مر بها المقاتلون وما قصة جذيمة الابرش الواردة في أخبار يوم اليمامة إلا تجسيدا حيا لهذا الجانب عدا عن كثير من الأمور التي سيلي ذكرها أثناء الدراسة**(4)**.

وما يهمنا في هذه الدراسة التركيز على ملامح صورة البطل بين الواقعية والدور الملحمي في موضوع الأسطورة وغيرها من ملامح الصورة مع التأكيد على إن البطولة قد تكون حربية يجسدها البطل في معركة ما فهو بطل في الحرب يقود الجيوش ويذود عن الحمى وبطل حينما يحمي وجود القوم وينأى بهم عن المهالك ويقودهم إلى الخلاص من بشاعة الأسر والسبي بحسن التصرف مثلما هو بطل حينما ينحر وقت القحط ويفي بالعهد ويحفظ الذمم، ومع ذلك تبدو نهايات الأبطال في شعر الأيام وقصصها مفترقة جدا عن سيرهم فيصفهم احد الباحثين بأنهم(أبطال مأساويون يقتحمون صعاب الحياة ليضمنوا الوصول الى سبيل السعادة)**(5)** وتلك نتيجة طبيعية لان حركة الحياة التي لا تتوقف وتحدياتها المتواصلة تنجب أبطالا جدد يستلهمون البطولة من مآثر الأولين وهو بالضبط الأساس الذي يعتمد عليه شعر الفخر العربي عموما والفخر الذي جاء في ثنايا شعر الأيام نفسه لان البحث دائب عن (أنموذج) يتوسمه الفارس وهو يقدم على خوض غمار تجربة الحرب، وقد احتفظت الأيام بذكر الأبطال الميامين الذين قادوا الجموع الزاحفة وكانوا نماذج للقيادة فهم أبطال مجد وحماة الأرض**(6)**، وتبقى عند البطل الفارس ثنائية (الأخلاقي والبطولي) طالما انه الأنموذج المنشود للجماعة والمعبر عن فكرها ، وقد استطاع البطل العربي أن يستوعب حاجات عصره ويوفق بين هذين الجانبين ويسير في ما يمثل المكانة المرموقة للشجاعة.

والمفارقة الجميلة إن البطل قد اقترن دوره بقول الشعر وارتبطت قدرته على الفعل البطولي بما يستطيع إيصاله لا مجرد الفخر بالفعل الفردي بل بتأكيد انتماءه إلى نسيج القبيلة التي أنجبته وعلمته وساندته فيمتزج الفردي بالجماعي **(7)** ، من هنا يجد الفارس نفسه ملزما بالاعتذار للقبيلة كلما اخفق في معركة ما مع تأكيده على دوره في نجدة من تبقى من الفرسان والذود عنهم لان مرارة الهزيمة عند الفرسان أقسى من أن تكون حدثا وهو الأمر الذي يقوي نوازع الثأر وهو السبب الأساس في اتصال أيام العرب وارتباطها وتتابعها ولو بمسافات زمنية مختلفة ، ولاشك في إن مفهوم البطولة يتصل بين الأمم اتصالا وثيقا ، وقد نقل د. البياتي رؤية(مونرو جادويك)في دراسته لآداب الشعوب المختلفة والذي أطلق على الفترات التي ظهرت فيها الأنواع المتشابهة للأدب اسم(عصور البطولة) فيرى تبعا لذلك إن كل بطل ملحمي في شعر الأيام جزءا من هذه النظرة وبالنسبة للصور الشعرية التي تتلى في المناسبات المختلفة تدعم صورة البطولة مما يدلل على الأصل الملحمي بدليل الكم الشعري الكبير المصاحب لها**(8)**، ولاشك في ان الأبعاد الأسطورية لشعر الأيام تتميز في اتجاهين:

الأول: الارتباط ببعض العادات والأفكار ذات الطابع الأسطوري والمتعلقة بالمعتقدات الدينية ، وهناك شواهد كثيرة جدا يقف في مقدمتها قضية قداسة الملوك التي وردت أثناء قصة الزباء وجذيمة الابرش في يوم اليمامة وقصة عطر منشم التي ذكرها زهير في معلقته وما ذكر من تيمن العرب ببعض الرموز في معاركها كالرجل المعمر(الأصم) الذي كانوا يصحبونه في معاركهم ويدورون حوله والجملين المعروفين ب(الزويرين) وهما جملان أسودان مجللان كانت تميم تصحبهما في معاركها ومنها اليوم المعروف بالزويرين**(9)** وكثير من الإشارات والأحداث ذات الطابع الأسطوري التي وردت في شعر الأيام وأخبارها.

الثاني:الصورة المثالية التي تضم جميع نواحي الصورة سواء ما تعلق منها بقداسة القضية التي يدافع عنها الشعراء أو مكانة الأشخاص الذين يحملون على عاتقهم مهمة قيادة الجموع وتبرز هنا صورة البطل(المقاتل-القائد-الزعيم-الإنسان) مضافا إليها صورة البطل الساعي لتحقيق السلام وحقن الدماء لتتحرك هذه الصورة في محورين (الحرب) وحيث الفعل البطولي والشجاعة والجرأة والإقدام و(السلم) من سعي لحقن الدماء وإيثار ومروءة،وربما اختلطت في ثنايا صورة البطل الكثير من ملامح هذا التوجه وذاك غير أن ما يعنينا هو البحث عن تلك الرؤية التي يختلط فيها الفن بالصورة المثالية وصولا إلى تأكيد وجود أنموذج اجتماعي إنساني يتحول الى أنموذج فني له قيمته في تشكيل البنى الشعرية لنصوص شعر الأيام يوازي قيمة الأنموذج الاجتماعي.، وإذا ما رجعنا إلى البطل المثالي وجدناه يتصف بكونه متحد فخور شجاع جلد مندفع لا متنصلا من الحياة بل مدافعا عن استمراريتها فالبطولة ضروب من التفاني من شأنها ان تكسب صاحبها الحمد الذي فيه خلوده وهي المشكلة الكبرى في الأيام ومن هنا انطلقت فكرة المعمرين ومسألة التبرك بهم**(10)**، ولاشك في إن اختلافا كبيرا سيحصل في ثنايا تفاصيل صور البطولة والأبطال بين النماذج الكثيرة جدا التي وصلتنا من شعر الأيام إلا إن من المؤكد أن هناك قواسم مشتركة بينها مثلما إنها تنوعت بحسب الأغراض والموضوعات فالبطل في شعر الفخر هو غير البطل في أشعار المديح وهو شخص مختلف بملامح مختلفة وايجابية قد تصل إلى حد إن تكون خارقة في أشعار الرثاء وعلى هذا الأساس الموضوعي ستتم دراسة ملامح صور البطل وتتبع ملامحها في شعر الأيام الى جانب تتبع أهم المظاهر الفنية التي افرزها هذا النمط الواسع من الشعر.

أولا- ملامح شخصية البطل في شعر الفخر

لا نغالي إذا ماقلنا إن الطابع الرئيس الذي طبع أشعار الأيام هو الفخر، لابحكم كونه الأقرب إلى طبيعة ظروف شعر الأيام وطابعه بل لأنه حقا موضوع شعر الأيام الأساس الذي تتفرع منه بقية الموضوعات الأخرى، وطبيعي ان يكون الباب الذي تطل من خلاله ملامح صور الأبطال بشكليها الأسطوري والواقعي ، وليس الفخر في أشعار الحرب العربية راجعا إلى حالة من الاعتداد الفارغ بالنفس والغرور الأهوج لأنه تحول على مر العصور إلى تقليد تشاع بموجبه الأفعال الحسنة وقيم البطولة التي كفل تأمين الوجود البشري العربي الممثل بالقبيلة ضد مخاطر يمكن عدها طبيعية في بيئة كبيئة بلاد العرب التي فرضت معاييرها القاسية على الإنسان وحيث مفهوم الغزو وبقية مفردات الصراع من اجل البقاء ، فالفخر حتى وان اخذ منحى فرديا إنما يؤكد في حقيقة الأمر على أهمية البطولة الفردية في خدمة المجموع لان البطل شخص مسؤول بحكم (القوة/الموهبة) التي يتمتع بها يقول احد الباحثين:(وابرز مايطالعنا في شعر الأيام –وهو شعر ملحمي في جملته- أبطاله من الرجال والملوك والكهان ولا اذكر الآلهة لان ذكرهم يدخل في باب الأساطير وقد برزت بشخوصها تارة وبرموزها والأوثان والكواكب والنجوم تارة أخرى ، أما البطل الإنسان فهو الإنسان المأساوي الذي حدثنا عنه كل شعر الجاهليين وليس شعر أيامهم فقط)**(11)**.

والسمة الحماسية التي يسبغ بها شعر الفخر في شعر الأيام ميزته بشكل كبير عن أشعار الفخر التي تقع خارج موضوعة الحرب إضافة إلى إن الحماسة كما يقول د. نوري القيسي غرض صريح فيه الكثير من العنف وهو أمر متوقع في شعر الفرسان الذين يمارسون القتال ويعيشون على مقربة من المعارك وأبطالها وضحاياها**(12)** وسنحاول من خلال تتبع نماذج الفخر الكثيرة في شعر الأيام البحث عن خصوصية معانيه في مواقف الحرب والمواجهة وملامح شخصية البطل فيها ، فلبيد بن ربيعة يفخر في يوم(السلان) بأرومته التي منعت ظلمه وهو يرى البطولة وفقا لهذا المنطلق لافي البأس والشجاعة وحدهما بقدر كونها خصلة أخلاقية متأصلة تمنع القوي من استضعاف الآخرين والاعتداء عليهم ليؤسس مذهبا أخلاقيا ينظم العلاقة الإنسانية مع الآخر حتى في زمن الحروب فيقول:**(13)**

إني امرؤ منعت أرومة عامر ضيمي وقد حنقت علي خصوم

ويجعل ذلك مدخلا للفخر بقومه في ذلك اليوم حيث يقول:**(14)**

وغداة قاع القرتين أتاهـــــــم دهوا يلوح خلالها التسويـــــم

بكتائب رجح تعود كبشـــــها نطح الكباش كأنهن نجـــــوم

وقد تكون هذه البطولة الفردية متجسدة في بطل يقود الجموع ويهديهم لحسن التصرف الذي يجنون نتائجه على نحو ما قدمه السفاح التغلبي في قوله:**(15)**

ولـيل بت أوقد في خزازى هديـــت كتائبا متحيرات

ضللن من السهاد وكن لولا سهاد القوم احسن هاديات

فكن مع الصباح على جذام ولخم بالسيـوف مشهرات

وهو قائد جيش كليب وكان كليب قد أمره أن يوقد نارا على خزاز الجبل ليهتدي بها الجيش وقال له (إن غشيك العدو فأوقد نارين) **(16)**

وقمة الفخر بملامح أسطورية يسبغها البطل على ذاته تتجسد في(أنا) المقترنة بالحقيقة ليصل نطاق الأسطورة إلى الحصان الذي يجرده الشاعر شاهدا على بطولته، يقول عامر بن الطفيل:**(17)**

لقد علمت عليا هوازن إنني أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر

وقد علم المزنوق أني اكـــره على جمعهم كر المنيح المشهـــر

ونكتشف فيما بعد هذا التمادي في رسم ملامح البطولة والذي لم يكن سوى ردة فعل على الخسارة المذلة في الحرب التي يعتذر الشاعر لقومه عنها لأنه تسبب فيها **(18)** وما قوله (علم،علمت) إلا تأكيد للحقيقة التي تكلم عنها وهي حقيقة شخصية البطل ، وقد يكون الفخر بالثبات وعدم الفرار من المعركة حتى لو كان الثمن الوقوع في قبضة الأعداء على العكس من فكرة الهزيمة والفرار التي يبررها عامر بن الطفيل في أبياته السابقة فنلمح صورة البطل الايجابي الثابت على المبدأ الذي يؤثر لقبيلة على نفسه ويقدمها ثمنا لنجاتهم على نحو ما نرى عند عبد يغوث الحارثي في قوله:**(19)**

جزى الله قومي بالكلاب ملامة صريخهم والآخرين المواـليا

ولو شئت نجتني من الخيل نهدة ترى خلفها الحو الجياد تواليا

ولكنني احمي ذمار ابيكـــــــم وكان العوالي يختطفن المحاميا

وعلى ذكر التشبه بالليث وتشبيه الأبطال به فقد تكررت هذه الكلمة كثيرا لاسيما عند الشعراء الفرسان وستكرر كثيرا كما سيرد في الحديث عن استخادم الشعراء للحيوان في أشعارهم ،وبالنسبة لحضور المرأة في مفردات فخر الفرسان فقد تنوعت أدوارها بين موثبة ولائمة ومهددة كما هي مساندة**(20)**ولاشك في إنها سبب جوهري من أسباب إبراز ملامح البطولة لا بوصفها شريكا سعى الرجل إلى إرضائه ونيل إعجابه وحسب بل لكونها المتضرر الأكبر إذا ما حاقت الهزيمة بقومها وحيث السبي والترمل وعار يلحق بالإنسان مدى الحياة ، من هنا كانت لا تتورع عن توجيه اللوم وتعيير المهزومين على نحو ما فعلت سلمى بنت المحلق في قولها تعير جوابا والطفيل بفرارهما:**(21)**

كيف الفخار وقد كانت بمعترك يوم النسار بنو ذبيـــان أربابا
لم تمنعوا القوم إذ شلوا سوامكم ولا النساء وكان القوم احزابـا

وفي التساؤل المشروع الذي تطرحه في قولها (كيف الفخار)إنما تقطع الطريق أمام اعتذار الفرسان عن الهزيمة وتوثبهم لأخذ الثأر ، ويختلف دورها هنا عن دورها في (السلبي نوعا ما) في مجمل أشعار الرثاء،إن اقتحام الموت وأهواله يرسم جزءا من حالة يرى فيها الشعراء ملمحا أساسيا من ملامح صورة البطل حتى لتصل صورة الفعل البطولي عنده إلى درجة تحول الأعداء إلى أشلاء ممزقة كان أقدامهم وأذرعهم الممزقة كرب سعف ممزق يعوم في ماء نهر جار وفي تلك الصورة المتخيلة من المبالغة ما يعزو سمة القوة والبطش في البطل المفتخر أمام المرأة ، يقول عمرو بن الأسود:**(22)**

ولقد أمرت أخاك.عمرا أمره فعصى وضيعه بذات العجرم

وجعلت نحري دون بلدة نحره ولبان مهري إذ أقول له أقدم

في حومة الموت التي لا تشتكي غمراتها الأبطال غير تغمغم

وسمات القيادة صفة ملازمة للبطل المفتخر والذي ينصهر فعله البطولي في فعال المجموع فان عزت البطولة الفردية فإنما يشار إليها في سياق آخر، فأبن عنق الحية يفخر بقيادته الجيش الجرار فيقول:**(23)**

أقود خميسا له ازمـــــل وقد قادني الحين نحو الكلاب

إلى أسرة غير مذمومـــة اذا أبدت الحرب حجل الكعاب

وقامت رحانا على قطبـها وفرت هنالك عن حد نـــــاب

وطرفة يضيف إلى سمات بطله أمورا اقرب إلى الكمال يوم الهول حين تستبى النساء وتصادر الإبل وتهرب الفرسان من هول المعركة فيقول:**(24)**

كامل يجمع آلاء الفتى نبه سيد سادات خضم

خير حي من معد علموا لكفي ولجار وابن عم

وأجمل ما نلمحه في شعر الفخر الفردي هو التباري في رسم صورة للبطولة الذاتية من خلال مفاخرات مجتزأة في مواقف عده منها أبيات في الرجز شهاب بن جحدر ومالك بن مسرور في يوم جدود فيقول شهاب:**(25)**

أنا شهاب بن جحدر اطعنهم عند الكر

تحت العجاج الاكدر

ويجيبه مالك:

وأنا مالك بن غيلان معي سنان حرن

وإنما جئت الآن أقسمت لاتؤبان

حتى يؤوب العدلان

ولاشك في إن مواقف الحرب التي يكون موضوعها الأساس الدفاع عن حياض القبيلة تجعل المواقف الفردية تذوب في وسط الفعل الجماعي من هنا فكل النماذج السابقة لايمكن ان تنسلخ عن السمة الجمعية للفخر وهو ما يشير إليه احد الباحثين بالقول(ولعل في استعمال الشاعر الجاهلي صيغة الجمع عند فخره بقبيلته وذلك بتصديره الضمير نحن وعداه من الضمائر المشابهة لقصائده ما يدلل على رغبته في إضفاء مظاهر الفخر على مجموع القبيلة)**(26)** ، إلا إن الفرسان قد يكونوا بحاجة إلى إبراز الذات لسبب ما قد يكون انتصارا لها أمام المرأة أو استجابة لاعتداد الشاعر بها ولنا في معلقة عمرو بن كلثوم مثال حي على بطولة جماعية وتمجيد لها وهو يحاكي حقيقة معروفة عن قبيلته (تغلب)فيكرر قضية قتل الملوك :**(27)**

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا

فكنا الأيمنين اذا التقينـــــا وكان الايسرين بنو أبينا

فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا

وتختلط في ثنايا البطولة أفعال الأفراد بالمجاميع ليتحول التركيز من مفهوم (البطل) وسماته إلى فضاء البطولة الرحب وحيث البطل جزءا من الأحداث التي يشترك الجميع في صنعها يقول سوار بن حيان المنقري:**(28)**

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة تمج نجيعا من دم الجوف أشكلا

وحمران أدته إلينا رماحـــنا ينازع غلا في ذراعيـــه مقفلا

على إن ظهور ملامح البطولة الفردية أوضح من ملامح البطولة الجماعية فعنترة يرسم صورتين للبطل ذاتية وجمعية و **اولهما**: هي الأبرز والمتعلقة بالذات وذلك ترجيع لحالة الظلم الاجتماعي التي يعيشها مع قومه كونه عبدا اسودا صارع قدره وقضى حياته ممزقا بين ثنائية غير متكافئة فهو بطل مرغوب مهاب في الحرب عند قومه وخصومه وعاشق يتجاوز حدود المسموح طالما انه يخضع لقانون الطبقية في المجتمع فيقول:**(29)**

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفيت خيرا من معم مخول

والخيل تعلم والفوارس انني فرقت جمعهم بطعنة فيصل

وهذه الصورة تظهر في جميع أشعاره الحربية فهو شاعر فارس لا يشق له غبار وسار ذكره واشتهر حتى نسجت حوله الأساطير ، ويرى د. البياتي ان من جملة الأسباب التي جعلت من عنترة شاعر حرب ورجل قبيلة كونه اندفع تحت عقدة الانتساب إلى أم حبشية توزعت على شعره ثم الظروف التي أحاطت بقبيلته وصهرته فارسا لا يشق له غبار إلى جانب مأساة حبه لابنة عمه ورفض أهلها تزويجها له فعوض بشجاعته وتغنيه بها شعرا هذا الفشل إلى جانب ما يستشعره في نفسه من قوة جسدية وصلابة ثم رقي أخلاقه الذي طبع شخصيته في الحكايات بطابع أسطوري**(30)**وفي هذا السياق يشير د. بهجت الحديثي إلى ارتباط الشعراء بالأساطير فعد بعضهم أسطورة أو ما يشبه الأسطورة ومنهم عنترة الذي ادخلوه في باب الاسطوره وصوروه بطلا أسطوريا لأنه مولود من امة ملونة كانت قبل سبيها عذراء من بنات الملوك **(31) الثانية** وهي صورة البطل الخصم ومن الطبيعي والمألوف في أشعار الحرب العربية ان تكمن قيمة أي انتصار للفارس في قوة عدوه ، من هنا فقد أمعن عنترة في إسباغ سمات اقرب إلى الأساطير في ملامحها ومثاليتها على خصومه الأبطال ولا يشعرنا بسبب ما تقدم من حديث عن سمو أخلاقه بأن البطل الخصم سلبي او شرير لأنه يدرك في نهاية المطاف انه عربي تجمعه به صلة الدم والنسب ، يقول في رسم ملامحه: **(32)**

ومدجج كره الكماة نزالـــه لا ممعن هربا ولامستسلم

جادت يداي له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم

وعنترة يرسم في كل ما مضى صورة بطل ملحمي إلا انه واقعي مع كل ما لونه من بها من ملامح اسطوريه ويكفيه إن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه كلمته المشهورة(ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة)**(33)** .

ومن مظاهر الفخر ذات الطابع الاحتفالي الذي يتعمد به الشاعر رسم لوحة متحركة للبطولة جسدتها الكتائب التي تزرع الرهبة في النفوس وكأن الحرب طقس احتفالي أكثر من كونه مواجهة كريهة ، يقول المعقر البارقي: **(34)**

وصبحهم عند الشروق كتـــائب كأركان سلمى سيرها متواتـر

كان نعام الدو باض عليهـــــم وأعينهم تحت الحبيك خـوازر

من الضاربين الهام يمشون مقدما إذا غص بالريق القليل الحناجر

أخيرا إذا ماارد نا تلخيص الرؤية إلى مفهوم البطولة في إشعار الفخر وجدنا تركيزا على رسم صورة مثالية منحت في حقيقة الأمر الأشعار لونا مميزا خرج عن المألوف في أشعار الفخر بعيدا عن نطاق موضوع الحرب لان أيام العرب ووقائعها مثلت المعيار الحقيقي لقدرتها على البقاء مثلما كانت اختيارا حقيقيا لما تدعيه من قيم البطولة والفروسية .

ثانيا- ملامح شخصية البطل في شعر المديح

لم يعد خافيا على دارس الأدب العربي القديم أهمية وسعة موضوع المديح في الشعر الجاهلي عموما وفي شعر الأيام على وجه الخصوص وإذا كانت مهمة المديح تتجسد في إبراز الصفات الايجابية ونشرها وتمجيد أصحابها في السلم فإنها في شعر الأيام وبعيدا عن المقدمات فقد امتاز هذا الغرض في سياق الأيام بسمات خاصة ناسبت الظرف، وقد اكتست أشعار المديح للبطولة والأبطال أثناء شعر الأيام ملامح مميزة صهرت خطوط قصيدة المديح العربية في أنموذج جديد تفاعل مع الأحداث ووجد الشعراء سمات معينة يركزون عليها ويستنبطون التفاصيل ،وهو يدخل كثيرا في التوثيب مثلما يدخل في التهديد وفي رثاء الفرسان والفخر بالأنساب والأفعال، وهو ما سنلمحه في شعر الأيام منطبقا على جميع أغراضه وهي سمة اختلاط موضوعي يحاكي اختلاط المشاعر وتنوعها مابين فرح عارم بالنصر وغضب يوثب على الثأر وتغني بالسمات المميزة للأبطال،فتتساوى فيه سمات الحياء والحلم والعقل وحماية الاحساب والذود عن حمى القبائل وإدراك الثأر والنكاية بالأعداء واختراق القفار الموحشة في نطاق موضوع الشجاعة لتكون نواة مديح الفرسان **(35)** ولاشك في إن أركان المديح الأربعة التي ذكرها قدامه قد اختلطت في صورة البطل الممدوح في شعر الأيام وهي العقل والشجاعة والعدل والعفة **(36)** وكونت صورة مثالية لبطل كامل الأوصاف عند الشعراء ، وإذا ماعدنا إلى نماذج مديح الفرسان نلمس ملامح تلك الصورة فعبيد بن قرار البهري يجعل نفسه فداء لمن تداركه قبل الهلاك فيقول:13

نفسي الفداء لعوف الفعال وعوف ولابن هلال جشم

تداركني بعدما قد هو يـــ ت مستمسكا بعراقي الوذم

وكان من خبر هذه الأبيات إن ملكا من ملوك اليمن كانت في يده أسرى ربيعة ومضر وقضاعة فأتاه وفد منهم عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان وعوف بن عمرو المذكورين في الأبيات فطلب إليهم عبيد بن قرار أن يطلبوه مع من يطلبون من أسراهم ففعلوا فمجد فعلهم بهذه الأبيات **(37)** وما يلفت الانتباه في هذه الصورة تشبيه حاله اليائسة بمن تعلق ب(عراقي الوذم) والوذم قطعة من سير من جلد توضع بين أذان الدلو وعراقيها **(38)**،وعلى ذلك فان المعنى بين التفسيرين واحد بطرق مختلفة فهو قد عكس يأسه من الفكاك من الأسر وكأنه يتعلق بتلك القطعة في الدلو والتي يمكن أن تقطع في أي وقت لولا صنيع ممدوحيه ، وهذا التفصيل في المعنى يمثل مدخلا مناسبا يبرز عظمة الفعل ومع انه لم يسهب في تعداد مناقب الممدوح إلا انه جعل هذا الفعل بطولة بحد ذاته من غير حرب ولا سيف .

ومن ملامح صورة البطولة الخارقة ما جاء في قول ابن القائف:**(39)**

لما رأوا يوما شديدا بأسه كره الحياة وشقة الأسفار

وكأن زيدا زيد آل ضرار ليث بكفيه المنية ضـــــار

فالبطل (ليث) (بكفيه المنية) (ضاري) وكل ذلك على سبيل الكناية عن سمة الشجاعة فهو جعله ليثا في فعاله وتمم من سمات الليث أكله للحوم وتلك صورة تعكس الرعب في النفوس اتبعها بتفصيل لساحة المعركة وحيث آثار الخيل التي شكلت دائرة تعكس حصار الأعداء والالتحام معهم فدارت عليه الخيل كما يدار على (دوار) الصنم حتى جعلوا جثثهم طعما للطير متناثرة في كل ناحية.

وقد تختلط الصفات وتتداخل في صورة البطل فهو غيث لمن استنجد به ومستأسد ضار على من جار عليه على نحو ما يرى الأعشى ذلك حيث يقول:**(40)**

كالغيث ما استمطروه جاد وابله وعند ذمته المستأسد الضاري

...وتتكرر كثيرا مفردة(الليث) أثناء مدائح الأبطال ذلك إن المنعة والقوة التي يتمتع بها الأسد المرموز به إلى (البطل-الملك) تكفي قومه فخرا ، يقول الأعشى:**(41)**

ومنا امرؤ يوم الهمامين ماجـــد بجو نطاع يوم تجني جناتها

ومنا الذي أعطاه في الجمع ربه على فاقة وللملوك هباتـــــها

ومع إن البطل هنا لا يمثل بطلا شعبيا إلا إن الملوك كثيرا ما توصف بالأسود إذ يبدو إن مكانته بين الناس تحاكي مكانة الأسد بين الحيوان وهو قاسم مشترك في جملة أشعار المديح التي تأتي أثناء المعارك**(42).**

وبالنسبة لحضور الخيل مع الأبطال وهي الصورة المألوفة في أشعار الحرب **(43)**فشكلت ظاهرة في عموم أشعار الحرب وهو أمر مألوف ومنها أشعار المديح ، وفي هذا الصدد يؤكد نورثروب فراي في دراسته للبطولة وأنماطها إن البطل في هذا الجانب يكون بصيغة(نصف إلهية) إذ يمضي حياته مع الخيول وغيرها من الحيوانات فيكون موته أو عزلته ذات تأثير يمرق خارج الطبيعة في تصور الناس له **(44)** على إن الشعراء كثيرا ما تجاوزوا الحدود المعقولة للوصف لاسيما في مديح الفرسان فبطل بشر بن الخازم له سلطة حتى على العقاب الكاسر في صورة متخيله للبطل المنقذ ،يقول:**(45)**

تداركني اوس بن سعدى بنعمة وقد ضاق من ارض علي عريض

فمن وأعطاني الجزيل وانـــه بأمثالها رحـــــب الذراع نهوض

تداركت لحمي بعدما حلقت به مع النسر فتخـــــاء الجناح قبوض

فهو يجسد سلطة أسطورية حتى على موجودات الطبيعة ، وبالتأكيد فهو سمة(الضاري) التي يحملها العقاب والأسد وما سواهما من الحيوانات والطيور كانت السبب وراء تكرار ذكرهما في الأشعار،وتتكرر عنده بصيغة مختلفة إذ يتحول العقاب وغيره من الكواسر إلى رمز للعدو أو المصير السيئ الذي أنقذه منه ممدوحه الذي يتحول ليشبه شهابا لامعا في دجنة الليل ،يقول:**(46)**

تداركني منه خلـــيج فردني وعرد من تحنى عليه الأصابع

تداركني من كربة الموت بعدما بدت نهلات فوقهن الودائـــــع

فتى من بنـــــي لأم أغر كأنه شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع

أما بطل عبيد بن الأبرص فيقود جحافلا من الشجعان كالليل لكثرتهم على خيول تعدو كقطا ألجأها العطش إلى الماء لا تقف في وجهه كتائب تلمع في وضح النهار سيوف فرسانها التي أغوى بعضها بعضا بطلب المجد في قتاله،ليخرج من الصورة المألوفة لبطل اعتادت أن تفر الكتائب من مواجهته مما ألفناه في قصائد المديح، يقول: **(47)**

بجحفل كبهيم الليل منتجـــع ارض العدو لهام وافـــــر العدد

القائد الخيل تردي في أعنتها ورد القطا هجرت ظمأ إلى الثمد

غوت بنو أسد غسان أمرهم وقل ماوقفت غســـــــان للرشد

وفي تفاصيل يوم ذي قار ملامح خاصة للبطولة والأبطال لان العدو الأجنبي الذي فرض جبروته على القبائل العربية عقودا طوال حتى بدا وكأنه عصي على المواجهة من هنا كان النصر عليه ضربا من الأساطير وتروى في هذا اليوم أقاصيص البطولة وحكاياتها فقد كانت العرب تظن إن الفرس لا يموتون لمنعتهم وهول جيوشهم فعمرو بن معد يكرب قال قولته الشهيرة حينما قتل احد فرسانهم (يالزبيد إنهم يموتون) من هنا زخرت أشعارهم في هذا اليوم بملامح خاصة وكان احد أعظم ثلاثة أيام للعرب إلى جانب يومي(الكلاب) و(شعب جبلة)**(48)** يقول الأعشى:**(49)**

وخيل بكر فما تنفك تطحنهـــــم حتى تولوا وكاد اليوم ينتصـــــــف

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم منا غطاريف تزجي الموت فانصرفوا

ولاشك في حربا فتكت فيها جموع بكر ومن معها من العرب بجيوش الفرس وهزمتها ولاحقتها حتى دخلت السواد(أي العراق) وراءها **(50)**لابد أن يكون أبطالها على درجة عظيمة من البطولة والبسالة وهم هنا سادة من أرومة كريمة فوارس يحمد لقاءهم كالأسنة لاعيب فيها بيض الوجوه كأنهم جان عليهم الدروع الواسعة الطويلة،ولاشك في إن الدافع السياسي يقف واضحا في قضية الإشارة إلى أرومة النسب بغض النظر عن كون تلك الخصلة شائعة في أشعار المديح العربية لان المعركة مع الفرس كانت لها أبعادها القومية الواضحة بدليل إن العرب تناست خلافاتها واتحدت في مواجهة العدو الأجنبي،على إن صفات ممدوحيه من الأبطال تدرجت من الواقعي حتى دخلت حيز الأسطوري وهذا التصاعد في المشاعر طبيعي يفرضه استحضار الشاعر للوقائع وتراكم صور البطولة أمامه وهو يشهد روعة النصر وعظمة الفعل البطولي إلى درجة قد يشبه فيها الأبطال بالجن **(51)**وقد كثر ارتباط صور الأبطال والمعارك بمفردة(البيض) التي تنوعت معانيها وهي السيوف التي تبرق او أغطية الرأس(الخوذ) والعقاب وقد توصف الوجوه الحسنة لذوي النسب الأصيل بالبيض كما في قول الأعشى:**(52)**

بضربهم حبيك البيـــــ ض حتى ثلموا العجما

وجاءت بمعنى العقاب في قوله: **(53)**

على كل محبوك السراة كأنه عقاب هوت من مرقب إذ تعلت

وتلك بطولة جماعية تختلط بها الأفعال البطولة الفردية ويبدو إن خصوصية المعركة قد فرضت هذا النفس الجمعي لأنها ضد عدو أجنبي كما أسلفنا من هنا غابت البطولة الفردية وانصهرت في البطولة العربية بمفهومها القومي.

ومثلما جاء الكلام عن الأسد والعقاب والخيل في ثنايا أشعار البطولة ورد تشبيه البطل القائد/السيد بالكبش ، يقول الرمق بن يزيد الخزرجي:**(54)**

أبقت الأيام والـــــــ حرب المهمة تعترينا

كبشا له قرن بعض حسانه الذكر السنينا

وهنا قد يكون قصد بالقرن وصفه على الحقيقة لأنه من سمات الكبش المكنى به أو انه قصد السلاح الذي يحمله المقاتل (الرمح تحديدا) وأراد به زعيم الحرب والسلم أي سيد القوم بدليل قول طرفة:**(55)**

هم يضربون الكبش يبرق بيضه على وجهه من الدماء سباسب

ومن سمات البطولة الأخرى الإشارة إلى لوازم المعركة لاسيما الدروع كقول وداك بن ثميل :

مقاديم وصالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمـــان

و تشبيه الأبطال بالشموس لرفعة نسبهم وهي سمة رافقت صورهم في الكثير من القصائد وهم متعطشون للموت لترتفع بذلك السعي منزلتهم بين القبائل يقول :**(56)**

نفسي فداء لبني مـــــازن من شمس في الحرب أبطـــــال

ولابد بعد هذا العرض من الحديث عن صورة البطل المنصف (بفتح الصاد) والتي جاءت في ثنايا أشعار المديح الخاص بالأيام ،وفي مجموع شعر الأيام الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة نماذج كثيرة من الأشعار التي ظهرت فيها صورة (البطل الخصم) الذي يمثل وسيلة لاستظهار عنصر البطولة عند الشعراء سواء عند ممدوحيهم أم في مفاخرتهم،وتلك صور شائعة جدا في الشعر العربي القديم ، فقد يكون البطل المنصف ذي منعة وقوة عليه الدرع الحصين وهو رمز رافق صور الخصوم يقول متمم بن نويره :**(57)**

ونحن عقرنا مهر قابوس بعدما رأى القوم منه الموت والخيل تلحب

عليه دلاص ذات نســـج وسيفه جراز من الجنثي ابيض مقـضـب

ويقول ابن الحائك :**(58)**

ملنا على وائل في وسط بلدتها وذو الفخار كليب العـــز يحميها

فهو سيد قومه المطاع وقائد الجحافل وكليب العز هو كليب وائل الذي كان مقتله سبب الحرب المشهورة بحرب البسوس وأيامها الكثيرة **(59)** وحق فارس مثل كليب وائل أن ينصف ويشاد بشجاعته لما حملته الرواة من أخبار غزيرة عنه وعن حرب البسوس ،وتبدو جمالية فكرة التكافؤ مع البطل الخصم بأوضح صورها في الشعر بعيدا عن ملابسات المعارك وظروفها لتنتج نصا متنوع الإيقاع ومقسم الوحدات الصوتية والمعنوية في قطعة جميلة للجون التغلبي يسمع المتلقي منها وقع المبارزة يقول:**(60)**

من مبلغ شيبان انـــــ ـي لم يكن أمري خفيا

راميتـــــــه حتى إذا مـــــاكان نبلانا نفيا

طـــــاعنته حتى إذا مـــاكان رمحانا شظيا

فقد انتهى إلى تقرير منعة وصلابة الخصم وإبائه والذي يكافيء تلك الخصال لدى الشاعر نفسه،والذي يتكرر في قول حاجب بن زرارة التميمي في مقتل اشيم :**(61)**

فان قتلوا منا كريمـــــا فإنما قتلنا به مأوى الصعاليك أشيما

واشيم هنا اسم الفارس المكنى بابي الصعاليك كما إن معناه في البيت (الفارس) ..ونلمح صورة أوضح لبطولة الخصم في قول مالك بن حطان معتدا بنفسه ومنصفا عدوه:**(62)**

وما ذنبنا إنا لقينـــــــا قبيلة إذا واكلت فرسانها لا تواكل

يساقوننا كأسا من الموت مرة وعرد عنا المقرنون الحناكل

ومع انه يبرر الهزيمة بتخلي من وصفهم ب(المقرنون) وهم من أب عربي وآخر غير عربي ممن صحبهم قومه في الحرب إلا انه يقر بقوة الخصم .

ويرتبط قوله(علوته) بالمعنى الحسي لهذه الكلمة لأنهم يشعرون كما يقول احد الباحثين بان الضارب في منزلة أعلى بالنسبة للمضروب حين يكون الضراب من على صهوات الخيول لإنزال السيف على رأس الضحية يقول امرؤ القيس:**(63)**

نعلوهم بالبيض مسنونة حتى يروا كالخشب السابل

وقول عمرو بن الاسلع قاتل حذيفة بن بدر:**(64)**

علوته بحسام ثم قلت له خذها إليك فأنت السيد الصمد

وان كان المعنى الظاهر للأبيات يوحي بذلك فان هناك معنى أعمق قصد إليه الشاعر والا لكان استخدم ايا من المفردات الأخرى الأقرب كضربته مثلا لكنه هنا قتل شخصية هامة ورمزا من رموز قومه وقائدهم في حرب داحس والغبراء فيكون معنى(علوته) تخليدا للانتصار على رجل عرف بعلو نسبه وهمته ومكانته بين قومه بدليل قول الشاعر(فأنت السيد الصمد)ن وتلك إذن خلاصة مواصفات البطل الممدوح فارسا شجاعا وسيدا مطاعا وقائدا يقود الجحافل في سوح الوغى بما لها من خصوصية تحاكي نماذج مديح الفرسان في شعر الحرب.

ثالثا- ملامح شخصية البطل في شعر الرثاء

الرثاء فن من الفنون الشعرية التي ارتبطت بالحروب والوقائع وهو بكاء الميت وتعداد صفاته ومحاسنه في ثوب من التفجع والحسرة والتلهف والأسى مع استعظام المصيبة واستشعار الجزع**(65)** واحتل الرثاء جزءا واسعا من أشعار الحرب ويقع في المرتبة الثالثة بعد الفخر والمديح من حيث كثرة قصائده ومقطعاته وارتبط بالحماسة لأنه يتضمن في أثناءه الدعوة إلى الأخذ بالثأر ومن مظاهره المميزة الندب والنواح لاسيما اذا ما ترافقت تلك المظاهر مع صورة المرأة ، وفي الحقيقة إن هذه الجزئية من صور الرثاء (أي النسوة النادبات) مثلت قاسما مشتركا في مراثي شعر الأيام وخلفية مناسبة للصورة أشاعت أجواءا من الألم والكآبة والشعور بفداحة الخسارة وعادة ما تختفي المقدمات لغزلية والطللية والخمرية في هذا النوع من المراثي لعدم مناسبة المقام وإذا ما ظهرت حالة أو اثنتان فيعني ذلك احد أمرين على ما يقول د. نوري القيسي وهي ان يكون الشاعر قد أدرك ثأره أو أن يكون الشاعر قد أدرك ثأره**(66)** وما يعنينا في الأمر تتبع ملامح صورة البطل المرثي ومعايير البطولة وهو هنا يكون أكثر اقترابا من الملمح الأسطوري فتبدو صورة كليب المرثي في قصيدة مهلهل بسمات يصعب استيعاب اجتماعها في رجل واحد لا لاستحالة تحقق الأمر بل لشمولها كل ما يتوسمه الإنسان في شخصية البطل فكليب الحامي (اسطوره في الحياة وأسطورة في الممات) حتى ليبدو إن قتلى سنوات الحرب الطويلة كانوا ضربا من الفداء لشخصية اكتسبت ملامح أسطورية عززتها شدة الحرب التي قادها مهلهل وطولها وكثرة قتلاها ، يقول مهلهل:**(67)**

كان النجم إذ ولى سحـــيرا فصال جلن في يوم مطـــير

كواكبها زواحف لاغـــبات كان سماءها بيدي مديـــــر

على أن ليس عدلا من كليب إذا طرد اليتيم عن الجـــزور

على أن ليس عدلا من كليب إذا رجف العضاة من الدبور

وهذا التكرار اكتسب إلى جانب قيمته الإيقاعية ميزة تشبه ميزة الترانيم في طقوس العبادة الشائعة وحيث إيقاعات الترنيمة وتكرار عباراتها واعتمادها على التوازن من خلال العبارات القصيرة المسجوعة ، ولا ننسى إن هذه القصيدة هي أقدم نماذج رثاء الفرسان في شعر مهلهل الذي وصفه الرواة بأنه أول من طول القصائد وقصدها فتتضح ملامح البطل المرثي في قصيدة أخرى له فيقول: **(68)**

كليب أي فتى عز ومكـــــرمة تحت السقائف إذ يعلوك ســـــاقيها

نعى النعاة كليـــــبا فقلت لهم مادت بنا الأرض أم زالت رواسيها

الحزم والعزم كانا من طبائعه ما كل الآنه يا قوم احصيـــــــــــها

و يصف عدي بن ربيعة بطله المرثي بالحية فيقول وقد قرنها بالشجاعة: **(69)**

حية بالطريق اربد لا ينـــــــ فع منه السليم نفث الراقـــي

فارس يضرب الكتيبة بالسيـ ف دراكا كلاعب الـمخراق

ولاشك في إن للحية مكانة خاصة في أشعارهم لأنهم عدوها بنت الجان وفق معتقداتهم وكانت حاضرة في بعض أيامهم كيوم عاقل ويوم البردان واحد أيام داحس والغبراء إلا إن حضورها كان واقعيا لأنها موجودة في الحدث وترافق مع مدلولها الرمزي**(70)**وفي الأشعار التي رثي فيها المهلهل نفسه من قبل ابنته سلمى ملامح واضحة لبطل أسطوري فقدته سوح الوغى حيث تقول:

ألا تبكيان المرتجى عند كل مشهد يثير مع الفرسان نقع الاباطـح

عديا أخا المعروف في كل شتوة وفارسها المرهوب عند التكافح

وتقول في مرثية أخرى:**(71)**

جزعا عليه وحق ذاك لمثـــله كهف اللهيف وغثية اللهفـــان

والمرتجى عند الشدائد إن غدا يحمى الذمار وجورة الجيران

ومن الواضح إن الزمن الطويل الذي تقضيه شخصية البطل في سوح الوغى وكثرة ممارسته الحرب وقيادة الجموع تسبغ عليه ميزات اقرب إلى الخارقة لاسيما إن كان معمرا وغالبا ما انتهى مثل هؤلاء الأبطال نهايات غامضة وغير واضحة كالمهلهل وامريء القيس لابل ان نهاية عمرو بن كلثوم التغلبي لا تقنع القاريء المعاصر في تفاصيلها اللهم الا عنترة الذي قتل في معركة بعد أن حيكت حول بطولته الأساطير ،وايا كان الأمر فسنعثر على ملامح متشابهة للبطل

المرثي في كثير من أشعار الحرب فجليلة بنت مرة ترثي كليبا ذاكرة المصاب ولا تتجاوز حقيقة كونه سيد القوم ،تقول:**(72)**

قد كان تاجا عليهم في محافلهم وكان ليث وغى للقرن طراحا

وقد حملت مراثيها فيه ملامح رثاء الزوج والحامي وفيها الكثير من الذاتية البعيدة عن الحماسة والتحريض على الثأر وتفترق جليلة ومن قبلها سلمى بنت مهلهل في طبيعة استجلاؤهما لملامح شخصية البطل المرثي وحيث هو الأب والزوج عن الخنساء ومراثيها في صخر أخيها ، تلك المراثي التي شكلت نمطا رثائيا خاصا أسس لقصيدة الرثاء النسوية ،وفي هذا الصدد يؤكد د.يوسف اليوسف ان أكثرية المشتغلين بالرثاء كانت من النسوة لا من الرجال وان ذلك الرثاء هو القائم على مدح المرثي وتأبينه أكثر من قيامه على رثائه) **(73)** فهوعندها الفتى الكامل:

هو الفتى الكامل الحامـــي حقيقته مأوى الضريك إذا ما جاء منتابا

وهو رموز الطبيعة الخالدة : **(74)**

وان صخرا لتأتم الهداة بـــه كأنه علم في رأسه نـــــار

جلد جميل الحـــيا كامل ورع وللحروب غداة الروع مســعار

وتكثر فيها صفات المبالغة المتتالية التي تستكمل ملامح اسطرة الصورة وكأننا بإزاء تمثال روماني بديع الصنعة فهو(مقدام،عقار،علم في رأسه نار،جلد،جميل الحيا،كامل الروع) ن كما يمتزج دور البطل الاجتماعي في أشعارها بالبطل الحربي وتكاد تذوب الفوارق بينهما لتكتسب صورته تلونا يجعل منه الأنموذج الذي يحتذى في الحرب والسلم،من هنا استحقت أن تحتل مكانتها في طليعة شعراء الرثاء **(75)**كما نعثر على شاعر آخر يرثيه وهو خفاف بن ندبة السلمي ولا يخرج عن إطار الصورة التي ترسمها الخنساء مع ميل أكثر للتفصيل،يقول:**(76)**

أخي ثقة إذا الضـراء نابت وأهل حياء اضـياف ونحر

كصخر للسرية غـــادروه بذروة أو معاوية بن عمرو

اشد على صروف الدهر ادا وآمر منهم فيها بصـــبر

وأكرم حين ضن النـــاس واحمد شيمة ونشـــيل قدر

ويبدو إن المرأة حقا قد اختصت بأشعار الرثاء لأنه الأقرب إلى طبيعتها وتركيبتها النفسية ومنزلتها الاجتماعية فهذه دخنتوس بنت لقيط هجت خصوم أبيها ورثته في قطعة واحدة فتقول:**(77)**

لقد ضربوا وجها عليه مهـــابة ولا تحفل الصم الجـــنادل من ثوى

فلو إنكم كنتم غداة لقيـــــتم لقيطا ضربتم بالأسنة والقنـــــا

غدرتم ولكن كنتم مثل خصـــب أضاءت لها القناص من جانب الشرى

فان تعقب الأيام من فـــارس تكن عليكم حريقا لايـــــــرام إذا سما

وتشبه هذه القطعة في أسلوبها قطعة الخنساء السابقة والتي تراكمت فيها الصفات فهو السيد المختار والفحل الأرفع نسبا والمقارع في الحروب والرئيس والقائد والكوكب الدري.

رابعا-صورة البطل وملامح البطولة بين الموضوع والفن

لاشك في ان ما تقدم من مباحث تتبعت ملامح البطولة وشخصية البطل في شعر الأيام قد أفرزت جملة استنتاجات وأفكار يتعلق بعضها بالسمات الموضوعية والفنية للصورة كما لوحظ وجود تباين واضح في الأفكار والصور بين الأغراض الشعرية السابقة لا لكون كل منها يركز على فكرة ما وتتحرك باتجاه معين فحسب بل لان أجواء كل غرض مثلت خلفية لصورة البطل إلى جانب تفاوت حظوظه من الصورة العامة نفسها فقد يكون التركيز منصبا على شخصيته وحدها وتكون شخصية مستأثرة بالصفات والاهتمام كما قد يكون التركيز منصبا على الأفعال مثلما يكون البطل رمزا لفعل اجتماعي ، فبالنسبة لشعر الفخر هناك الفخر الفردي والفخر الجماعي ويتبدل الصوت مابين بطل يفخر بنفسه وأفعاله وآخر ينسب مزاياه إلى تعاضد المجموعة وكرم النسب والمنزلة التي تحتلها القبيلة ، وبالتأكيد فان مفهوم الكثرة الذي ظهر في أشعار الفخر القبلي قابله مفهوم الشجاعة المفرطة في أثناء أشعار الفخر الفردي **(78)** وتكون المحصلة هنا أنماطا تقترب بمزيجها (الواقعي-الأسطوري) اقرب إلى الواقعية في التعبير لان الفخر الفردي تحديدا يدور في اتجاهين:

الأول: مقاربة معقولة مع الواقع المعاش لان هناك شهودا كثر يمكن أن يختلفوا في رؤيتهم لمفهوم البطولة مع البطل المفتخر .

الثاني: مبالغة مستحبة مألوفة في أشعار الفخر لاسيما في مواقف الحروب لأنها تصبح عندئذ سلاحا ماضيا من أسلحة الحرب فالمعركة الموازية(الشعرية) تبدأ قبل المعارك الفعلية وأثنائها وبعدها ، وقد اشتركت قصائد الفخر ومقطوعاته بالتركيز على صفات محددة تأتي الشجاعة والبأس والإقدام والثبات في مقدمتها وكانت الأسلحة حاضرة في ثنايا صور البطولة وقد لخص د.عادل البياتي بعض الأفكار حول سمات شعر حرب داحس والغبراء وعممه على مجمل شعر الأيام منها ان أكثر القصائد والمقطوعات كانت تبدأ بالاستفهام والنداء والتنبيه إلى جانب أفعال الإبلاغ **(79)** ومن الطبيعي أن يأخذ شعر الحرب هذا النمط من الأساليب الافتتاحية لكن ينبغي هنا التفريق بين الشعر الذي نظم قبل المعركة وأثنائها والآخر المنظوم بعد المعارك ذلك لان الموقف في الحالة الأولى يستدعي الولوج إلى الفخر مباشرة في حين يمثل الموقف الثاني حالة من التأمل للفعل البطولي وحسن البلاء في المعركة وأجمل مافي هذا النمط الثاني انه يركز على جزيئات صورة البطل ويفصل أفعاله كما إن من المألوف ان يتم التعبير عن ذلك بأفعال وصيغ ماضية **(80)** ومن السمات الأخرى التعبير عن اتصال الحروب والمعارك وفي هذه الحالة يوصف البطل بلبس الحديد والدروع ليلا ونهارا ولفترات زمنية طويلة وحتى حين يصاب فانه يحول الإصابة إلى نقطة ينطلق منها للفخر كقول عنترة حين طعن في عينه:**(81)**

إن الكريم ندوبه في وجـــــهه وندوب مرة لاترى في المنحر

لكن في أكتافهم وظـــــهورهم فبذاك فافخر بئس ذاك المفخر

حيث يختلط الفخر بالهجاء ، وتأتي صورة الفخر الجماعي لتكون وعاءا تنصهر فيه صورة البطل الذي يقود الجموع ويفتخر بها وفي أشعار تغلب تحديدا يظهر تحول واضح بين الفخر الفردي والقبلي عند اثنين من اشهر شعرائها وهما المهلهل وعمرو بن كلثوم حيث يمثل الأول ذروة الفعل البطولي الفردي وتتبدى في أشعاره البطولة الفردية وسمات البطل القائد وبالحديث عن هذا النمط من الأبطال يرى نورثروب فراي إن هذا النمط من الأبطال الذي يعد ارفع منزلة

من بقية الناس لكنه بمستوى محيطه الطبيعي يكون قائدا ذا هيبة ورهبة **(82)** في حين كان عمرو بن كلثوم تجسيدا لمفهوم البطولة الجماعية وحيث البطل هو القبيلة ،وقد يكون للعوامل التاريخية وتغير دوافع الحروب بين مهلهل وعمرو بن كلثوم وهو أمر تميز به أسلوب مهلهل في تجسيد شخصية البطل وهو أمر يشاركه فيه شاعر تغلبي آخر شهد معه الحرب هوهجرس ابن كليب وحيث النفس الفردي وملامح بطل مفتخر بفعله الفردي **(83)**وفي شعر عنترة نلمح توازنا معقولا بين الفخر الفردي والقبلي مع إضافة تميز بها شعر عنترة وهي صورة البطل الخصم المنصف الذي تمثل بطولته معيارا للبطولة الفردية عنده**(84)**وفي هذا الصدد يقول احد الباحثين:(عندئذ نجل هذا البطل المقاتل والذي يجل عدوه البطل المقاتل ويرى فيه عدوا في الحرب وأخا وابن عم في السلم وكفئا في القتال وندا في الفعال)**(85)** ولاشك في إن الأمر ذاته ينطبق على ملامح صورة البطل الممدوح وجود تقارب واضح بين الغرضين فالبطل المنقذ في ثنايا بطولة الحرب هو الملمح الأساس فيها فهو قائد شجاع ورجل حرب وسلام تهابه الملوك **(86)** ولاشك في إن تلك المعايير ترسخت بوصفها معايير للبطولة يقول ابن رشيق(وأفضل ما مدح به القائد الجود والشجاعة وما تفرع منهما نحو التخرق في الهبات والإفراط في النجدة وسرعة البطش وماشاكل ذلك)**(87).**

وبالنسبة للرثاء فانه يتداخل مع المديح مع خصوصية ارتباطه ببطل خسرته القبيلة وخصوصيته تأتي من كونه يتيح مجالا أوسع لتأمل صورة البطل المرثي وملامحه القريبة إلى الكمال مع التفجع والحسرة والنواح التي تمتزج في ثنايا صورته لاسيما إن كان ملكا أو زعيما ، ويلاحظ في رثاء الفرسان الأبطال التي ترسم صورة البطل الفقيد خلوها من المقدمات الغزلية على عكس المديح وينقل ابن رشيق في العمدة عن ابن الكلبي قوله: لا اعلم مرثية أولها نسيب إلا مرثية دريد بن الصمة الدالية **(88)** ولابد من الاشاره إلى حضور الأساطير الذي اشرنا إليه إذ إن الشعر العربي قبل الإسلام قد زخر بالرموز والملامح الأسطورية مع انه كما يشير احد الباحثين قد خلع ثوب القداسة إلا انه حمل بعض الآثار الدينية الأسطورية التي سقطت إليه من المرحلة المتقدمة والأسطورة غنى رمزي أفاد منها الشعراء ووظفوها توظيفا فنيا وموضوعيا**(89)** وفي الأدب كما يشير نورثروب فراي هناك ثلاث تنظيمات للأساطير والرموز يسمى الأول (الأسطورة غير المزاحة) وهي التي تعنى بالآلهة والشياطين والثاني يسميه الرومانس وهو يشمل الإيحاء بأنماط أسطورية في عالم وثيق الصلة بالتجربة الإنسانية والثالث الواقعي الذي يشدد على المضمون اكمن تشديده على الشكل في بعض الأنماط الأدبية ومنها القصة**(90)** وإذا ما تأملنا احد نماذج البطولة الأسطورية الطابع في الفخر(عند عنترة مثلا) وفي المديح (الأعشى أو بشر بن أبي خازم)والرثاء (كما في مراثي مهلهل لكليب أو الخنساء لصخر)وجدناها تستوفي النماذج الثلاث المذكوره للتنظيمات الأسطورية بصورة مختلطة فعنترة يمثل نمطا مزيجا من الاتجاه الواقعي والرومانسي اذا ماخذنا بنظر الاعتبار اختلاط الفخر بموضوع الحب وحيث تمثل المرأة صلة الوصل بينهما إلى جانب كونه يحمل ملامح البطل الشعبي وهو الحامي المستغاث به في كل وقائع قومه ويقترب في السمة الأخيرة من صيغة (البطل الصعلوك) المتجسد في عروة بن الورد وحيث اختلاط صورة الحرب بصيغة إيثار الجماعة والذود عنها مع اختلاف دور المرأة في هذه الحالة إذ تتجسد في صورة اللائمة التي يجردها الشاعر لتبرير اندفاعه البطولي أما البطل الممدوح فهو اقرب إلى التنظيم الثالث وحيث الاتجاه الواقعي مع شيء من ملامح النمط الثاني وهنا تقدم قصيدة المديح العربي أنموذجها الأسطوري الخاص وحيث البطل الممدوح مزيجا من الإنسان/المقاتل وهو بطل في السلم والخرب مما يكسب مدائح شعر الأيام صورة إنسانية تبتعد عن بشاعة الحرب وقسوتها بدليل وجود هذه الصورة المرسومة للحرب في ثنايا الأشعار نفسها إلى الدرجة التي وجد فيها تيار معارض لهذه الحرب وهو أمر غير مألوف في أشعار الحرب**(91)** وتتجسد الملامح الأسطورية بشكل أوضح في اشعارالرثاء وصوره عموما مزيج من التنظيمات الثلاثة مع الاقتراب من النموذج الثاني المختلط بالتجربة الإنسانية ففي قصائد

مهلهل ضرب من الأسطورة لا تظهر في سمات البطل المرثي فحسب وإنما تعضدها الرموز ذات الدلالات الأسطورية وذلك في قصيدته الرائية**(92)**وصفات البطولة والمهابة والبطش والقوة والمنعة مما لم يظهر بذا العمق في بقية مراثيه في أخيه كليب، والعودة إلى القصيدة التي درست في موضوع صورة البطولة في أشعار الرثاء نجد تكرارا مميزا لنصف بيت (على أن ليس عدلا من كليب) والذي استخدمه الشاعر لتعداد مناقب المرثي وهذا التكرار الذي يكثر استعماله في مواضع الوعد والوعيد**(93)**وهي مرثية فريدة في أسلوبها اخترقت المألوف المتعارف عليه في أشعار الرثاء لأنه مزج الرثاء بالتهديد لاكما اعتدنا في مجمل نماذج الرثاء أن يمزج الشعراء الندب والنواح وتعداد مناقب المرثي بالدعوة إلى الثأر ثم لجوئه إلى الرموز الفلكية الذي منح التكرار وإيقاعاته أبعادا طقسية (أي متعلقة بالطقوس والشعائر) وهو ارتباط شائع في مراثي أبطال الحرب عند أم بسطام في رثائه وعند الخنساء في مراثيها لصخر**(94)** ويشير د. بهجت الحديثي إلى هذا الارتباط الأسطوري في مراثي الخنساء لأخيها صخر فهي لم تبك فيه صفات البشر الفانين لان الأمر لم يكن بالنسبة لها قتيلا في يوم ذات الأثل تطلب له الثأر بل تطلب قربانا مذبوحا تحت قدمي اله متعال ورحيله مثل لديها صدمة تشبه صدمة كلكامش بموت انكيدو**(95)**.

وبالنسبة للملامح الفنية فلم يخرج شعر الأيام في رسمه لملامح البطولة وصور الإبطال عن المألوف من أشعار الجاهليين لاسيما في الحروب من تشبيهات واستعارات وكنايات أفاضت المصادر في الحديث عنها وما يلفت الانتباه هنا هو ظاهرة المقطعات في هذا الشعر فقد أحصى د. عادل البياتي ما يزيد على التسعين مقطوعة فقط في حرب داحس والغبراء ليس بينها قصائد سوى معلقتي زهير وعنترة يضاف إليها ثمان قصائد تراوحت بين 11-53 بيتا وفي ديوان شعر الأيام الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة والذي بلغت نصوصه (قصائد ومقطوعات) 648 نصا وجدنا إن عدد المقطعات بلغ 424 مقطوعة منها 49 قطعة ببيت مفرد،وأطول القصائد كانت معلقة عنترة التي تقع في 88 بيتا ثم رائية بشر بن أبي الخازم 56 بيتا ثم بائية علقمة الفحل في 43 بيتا ثم ميمية بشر وبائية قيس بن الخطيم ب 38 بيتا وقصيدة مهلهل على حرف القاف 37 بيتا وعلى نفس القافية قصيدة سلامة بن جندل 32 بيتا وميمية عنترة ورائية مهلهل 31 بيتا وأخيرا لامية زهير وهي جزر من معلقته تقع في 30 بيتا وما تبقى من القصائد بأعداد مختلفة اقل من ذلك وبالنسبة للأراجيز فعددها 68 أرجوزة أطولها وقعت ب(14)بيتا لجحدر بن قيس البكري ويبدو إن الأسباب المفترضة لكثرة المقطعات لاسيما في شعر الحرب هي اقتطاع الرواة لأجزاء من القصائد تتعلق باليوم أو الحادثة إلى جانب النسيان **(96)**وليس يبعد أن تكون هذه الظاهرة حقيقية من غير تاويلات فقدان أو اختيار أجزاء من قصائد لان مواقف الحروب لا تحتمل القصائد الطوال اللهم إلا بعد انتهائها في مواقف التفاخر هذا إلى جانب ظاهرة غياب المطالع في أكثر القصائد التي وصلتنا مما يسميه د. نوري القيس ب(البناء المباشر)لاسيما في موضوعات الحرب والحماسة ومعه الرجز تناسبا مع المواقف وكان من النتائج المباشرة لهاتين الظاهرتين ان تميزت الأشعار بوحدة البناء الفني حيث التركيز على فكرة واحدة **(97)** وإذا رجعنا إلى ديوان شعر الأيام وجدنا إن أكثر مصادر تخريجات القصائد كانت من كتب الحماسات وبقية كتب أيام العرب وهي مصادر امتازت بالسمة المقطعية في أشعارها بسبب غزارة مادتها وتنوع موضوعاتها وبالتأكيد فان النصوص التي قيلت قبل المعارك وأثنائها تختلف عن تلك التي نظمت بعدها لحضور عنصر الارتجال والحماسة وامتزاج المشاعر في الأولى وحضور عنصر التأمل في الثانية ، وبالنسبة للأوزان والقوافي فقد أحصى د. البياتي سيادة بحور الكامل والوافر والمتقارب والبسيط والخفيف في أشعار حرب داحس والغبراء لتناسبها وأغراض الحرب **(98)**وفي مجموع شعر الأيام الذي اعتمدنا عليه هناك (222) قطعة وقصيدة على البحر الطويل وحده وبالتأكيد فان المواصفات الصوتية والتعبيرية التي تتيحها المساحة الداخلية للبحر كانت السبب وراء شيوعه فهو يمتاز بطوله ومناسبته للأغراض الجليلة كالحرب والرثاء ويرى بعض الباحثين انه اخذ حلاوة الوافر ورقة الرمل وترسل المتقارب وتخلص من جلبة الكامل ففيه الكثير

من سمات البحور الأخرى من هنا جاءت عناية الجاهليين به(ينظر المرشد إلى فهم أشعار العرب/254)وبالنسبة للقوافي احتلت قافية الراء النسبة الأبرز ب(102) نصا ثم الميم(91) فاللام(70) والباء(67)والدال(59) والنون(45) وكانت اقل القوافي اختيارا قافية الضاد بقطعة واحدة ببيت واحد و(2) للصاد والطاء والألف المقصورة، وهو أمر يعود إلى نسبة الغزارة المعنوية للحرف ونسبة جذوره في المعجم العربي.

الهوامش

1- طبقات فحول الشعراء1/259.
2- تاريخ الأدب العربي /255.
3- ينظر الملاحم العربية/63.
4- نفسه/87.
5- نفسه/334.
6- ينظر البطل في التراث/111.
7- نفسه/36-40.
8- ينظر الملاحم العربية/337-338.
9- ينظر رمز المرأة في أدب أيام العرب/86.
10- ينظر الملاحم العربية/341.

11- دراسات في النقد الأدبي/158.
12- ينظر تاريخ الأدب العربي/393.
13- ينظر البطل في التراث/54 وديوان شعر الأيام/12..
14- الملاحم العربية/555.
15- ديوان شعر الأيام/13.
16- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي/100.
17- نفسه/18.
18- ينظر تاريخ الأدب العربي/392.
19- ديوان شعر الأيام /61 وفي شرح اختيارات المفضل2767.
20- ينظر البطل في التراث/52.
21- ديوان شعر الأيام/428.
22- نفسه/107.
23- نفسه/217 وقطعة لسلامة بن جندل/247.
24- نفسه/202.
25- نفسه/241.
26- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي/124.
27- ديوان شعر الأيام/12 وفي ديوان عمرو بن كلثوم /26.
28- ديوان شعر الأيام/243.
29- نفسه/322 وينظر/332.
30- ينظر الشعر في حرب داحس والغبراء/407-408.
31- دراسات في الشعر العربي القديم/17
و دراسات في النقد الأدبي/158.
32- ديوان شعر الأيام/330 و333.
33- الشعر في حرب داحس والغبراء/406.
34- ديوان شعر الأيام/400 وأيام العرب وأثرها
في الشعر الجاهلي/122.
35- ينظر تاريخ الأدب العربي/219.
36- ينظر العمدة 83/2.
37- ينظر الملاحم العربية/379.
38- اللسان(وذم) وصاحب ديوان الأيام فسرها
بالحزة وهي الثؤلول في أسفل البطن/13.
39- ديوان شعر الأيام/14.
40- نفسه/33.
41- نفسه/48 وينظر /40،61.
42- نفسه/248 ،250.
43- نفسه/18 ،30 ،77 ،45 ،51 ،58 ،61 ،231 وغيرها.
44- ينظر تشريح النقد/55.
45- ديوان شعر الأيام/74.
46- نفسه/75-76.
47- نفسه/90.
48- ينظر الشعر في حرب داحس والغبراء/144.
49- ديوان شعر الأيام/97.
50- ديوان الحارث وشعر بكر/14.

51- ومثله تشبيه الأبطال بالجن في ديوان شعر الأيام/233.
52- نفسه/94.
53- نفسه/98، وينظر/202 ،210.
54- نفسه/158.
55- نفسه/210.
56- نفسه/250-251.
57- ينظر(ص) وفق ترقيم مقدمة المنصفات وديوان شعر الأيام/9.
58- ديوان شعر الأيام/13.
59- ديوان الحارث وشعر بكر/137 وديوان شعر الأيام/185.
60- ديوان شعر الأيام/49.
61- نفسه/266.
62- نفسه/267.
63- ينظر الشعر في حرب داحس والغبراء/223 وشعر الأيام/35.
64- ديوان شعر الأيام/350.
65- تاريخ الأدب العربي/208.
66- نفسه/210.
67- ديوان شعر الأيام/168.
68- ينظر تاريخ الأدب العربي/209 وديوان شعر الأيام/182.
69- ديوان شعر الأيام/186.
70- ينظر الملاحم العربية/238.
71- ديوان شعر الأيام/188-189.
72- نفسه/193-194.
73- مقالات في الشعر الجاهلي/331 وديوان شعر الأيام/399.
74- ديوان شعر الأيام/399 ،396.
75- صنفها ابن سلام ثانية طبقة المراثي1/204.
76- ديوان شعر الأيام/373.
77- نفسه/397.
78- ينظر مثلا نفسه/238 ،329 ،338.
79- ينظر الشعر في حرب داحس والغبراء/220-221.
80- ينظر ديوان شعر الأيام/63 ،339.
81- ينظر نفسه/323 ،339.
82- ينظر تشريح النقد/50.
83- ديوان شعر الأيام/184 ،232 ،238.
84- نفسه/324 ،229.
85- ينظر(ض) وفق ترقيم مقدمة المنصفات.
86- ديوان شعر الأيام/14 ،48.
87- العمدة 83/2.
88- نفسه 99/2 وفي ديوان شعر الأيام/386.
89- ينظر دراسات في الشعر العربي القديم/115.
90- ينظر تشريح النقد/203.
91- ينظر مواصفات بطل السلام عند زهير في ديوان شعر الأيام/364 والشعر في حرب داحس والغبراء/237 ،277.
92- ديوان شعر الأيام/167.

93- العمدة 25/2.
94- ديوان شعر الأيام/257، 317، 369.
95- ينظر دراسات في الشعر العربي القديم/21.
96- ينظر الشعر في حرب داحس والغبراء/202 وشعراء عبد القيس في العصر الجاهلي/202.
97- تاريخ الأدب العربي/203.
98- الشعر في حرب داحس والغبراء/343.

مصادر الدراسة

1- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي-منذر الجبوري-دار الشؤون الثقافية العامة-ط2-بغداد-1986.

2- البطل في التراث-د.نوري حمودي القيسي-دار الشؤون الثقافية العامة-ط1- بغداد-1988.

3- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام- د.نوري حمودي القيسي- دار الكتب للطباعة والنشر-ط2- الموصل- 2000.

4- تشريح النقد- نورثروب فراي – ترجمة وتقديم:محيي الدين صبحي- منشورات وزارة الثقافة السورية – ط2 –دمشق- 2005.

5- دراسات في الشعر العربي القديم- د.بهجت عبد الغفور الحديثي- مطابع التعليم العالي- بغداد- 1990.

6- دراسات في النقد الأدبي- احمد كمال زكي- دار الأندلس-ط2- 1980.

7- ديوان الحارث بن حلزة اليشكري ويليه شعر بكر وأخبارها في حرب البسوس- إعداد :طلال حرب- دار صادر-ط1- بيروت-1996.

8- ديوان شعر الأيام- جمع ودراسة وتحقيق:د.عفيف عبد الرحمن-دار صادر-ط1-بيروت- 1998.

9- ديوان عمرو بن كلثوم- صنعة د.علي أبو زيد- دار سعد الدين- ط1- دمشق -1991.

10- رمز المرأة في أدب أيام العرب- د. عادل جاسم البياتي- مجلة آفاق عربية- العدد 12- 1977.

11- شرح اختيارات المفضل-الخطيب التبريزي - تح:د.فخر الدين قباوة- ط2-دار الكتب العلمية-بيروت-1987.

12- شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي- جمع وتحقيق ودراسة :د.عبد الحميد المعيني- مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري- الكويت-2002.

13- الشعر في حرب داحس والغبراء-عادل جاسم البياتي- مطبعة الآداب-النجف 1971.

14- طبقات فحول الشعراء-محمد بن سلام الجمحي(ت231هـ) –قرأه وشرحه :محمود محمد شاكر- مطبعة المدني- القاهرة.

15- العمدة في محاسن الشعر وآدابه- الإمام أبو الحسن بن رشيق القيرواني(ت456هـ)- تح:محمد عبد القادر احمد عطا- دار الكتب العلمية-ط1- بيروت- 2001.

16- لسان العرب-ابن منظور :أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم(ت711هـ)-دار صادر- بيروت.

17- مقالات في الشعر الجاهلي-د.يوسف اليوسف- دار الحقائق-ط4- 1985.

18- الملاحم العربية(مقارنات في ضوء الأساطير والملاحم الكونية السومرية والسامية-د.عادل البياتي- مطبعة دار الجاحظ- بغداد- 1976.

19- المنصفات –جمعها وحققها :عبد المعين الملوحي-مطابع وزارة الثقافة-دمشق- 1967.